الفصل ١

يوجَدُ إله... وهو ليس أنت!

الله مركَزُ الكَون وأصلُ الوُجود

البدايةُ الحقيقيَّةُ في معرفة الله هي أن نراه كما هو في الحقيقة: مركَزَ الكَون وأصلَ الوُجود. هذه المعرفة هي أمرٌ غايةٌ في الأهمِّيَّة؛ لأنَّ التَّحرُّكَ الأوَّلَ بعيدًا عن الله حدثَ عندما ظنَّ الإنسانُ (آدم) أنَّه يستَطيعُ أن يكونَ إلهَ نفسِهِ، وأن يجعَلَ العالمَ كلَّه متمحورًا حَوله. وإذا لم نَعُدْ إلى الله من النَّقطة نفسها التي فيها تغَرَّبنا عنه، فسنَضِلُّ الطَّريقَ إليه.

ما معنى أن يكونَ لكَ إله؟ وُجوديًّا، إلهُكَ هو ما يلتصقُ به قلبُك وما تَثِقُ به وتَلتَجئ إليه وتخضعُ له. فنحن بالفعل عبيدٌ للَّذي "نُطيعُه" حقًّا وليس لما "نقول" إنَّنا عبيدٌ له (رومية ٦: ١٦). فإنْ كانَتْ أفكارُكَ وميولُكَ وراحتُكَ ولَذَّتُكَ هي الأمورَ التي تُطيعُها، فإلهكَ هو نفسُك، مَهما أردْتَ أو قُلتَ غير ذلك.

إنَّ لكلِّ إنسانٍ فينا إلهًا، حتَّى وإنْ كان ذاك الشَّخصُ مُلحدًا. فإلهُ الإنسانِ هو، كما يقولُ پـول تيليك (Paul Tilich)، "اهتمامُه الأقصى" (Ultimate Concern)،

ويمكن أن يكونَ هذا الإلهُ صَنَمًا، أو فكرةً، أو قيمةً، سواءٌ كان قيمةً عُلْيا مثل الخير والحقِّ والعدل، أو حتَّى التاريخ، أم قيمةً دُنيا مثل المال أوِ اللَّذَّة. بل إنَّ التعلُّقَ بالمقدَّساتِ والارتباطَ بها دون ارتباطٍ بالقُدُّوس نفسه يجعلُ من تلك المقدَّساتِ أصنامًا. فالسؤالُ إذًا ليس عمَّا إذا كان لك إيمانٌ أم لا؛ فلكُلٍّ منَّا إيمان، بل هو: "هل لكَ إيمانٌ بالإله الحقيقيّ؟".

ومَن الإلهُ الحقيقيّ؟

يجيبُ اللَّاهوتيون المحدِثون أنَّ الإلهَ الحقيقيَّ ليس جزءًا من هذا العالم، وهو ليس كِيانًا يوجَدُ بجانب كِياناتٍ أُخرى في هذا العالم. وكما أنَّ الوَصيَّة كانت للعبرانيِّين ألَّا يَصنَعوا تماثيلَ منحوتةً أو صورًا مَرسومةً لله، فإنَّ الوَصيَّة نفسها هي لنا: ألَّا نصنَعَ صورًا فكريَّة لله؛ فأيَّة صورةٍ من أذهاننا عن الله تُعَدُّ صَنَمًا فكريًّا نتَعبَّدُ له ويَضَعُنا في خطورة تَغريبِ أنفسنا عن الله.[٥] إنَّ الله هو دائمًا خارجَ تَصوُّراتِنا وأفكارنا، وهو يكسرُ دائمًا كلَّ القَوالبِ ويتحدَّى كلَّ الصُّوَر التي يرسمُها له الإنسان، فهو لا يسكنُ في هَياكلَ مَصنوعةٍ بالأيادي البشريَّة[٦]، ولا حتَّى الهياكل الفكريَّة المصنوعة في عُقولِ البَشَر. وينبغي أن يتضمَّنُ الإيمانُ بالله استجابةً منَّا لإعلان الله العامّ، أو الخاصّ، عن نفسه عندما يخاطبُ هذا الإعلانُ وَعيَنا وقُلوبَنا.

الوعي بالله

إنَّ الوَعْيَ بحُضور الله هو ذلك الوَعيُ بأنَّ هناك شيئًا ما آخرَ غير ما هو عاديٌّ ومألوف. إنَّها اللَّحظةُ التي ينفتحُ فيها بُعدٌ آخرُ من الوَعيِ يجعَلُنا نرى العالم ليس

5) Ted Peters, *God – The World's Future*, (Minneapolis: Fortress Press, 2000), p. 27-28.

٦) أعمال ١٧: ٢٤.

كما كنَّا نراه من قبل، كما يجعلُنا ننظرُ إلى البَشَر وإلى أنفسنا من منظورٍ جديد. عند تلك اللَّحظة من الوَعي بالله، نشعرُ وكأنَّ العالم يتوقَّفُ ويصيرُ دونَ قيمةٍ أمام ثراء تلك اللَّحظة التي يتكثَّفُ فيها وَعيُنا بالوُجود كلِّه.

عند هذه النُّقطة يصطدمُ الإنسانُ بسؤالِ الوُجود: لماذا هناك وُجودٌ وليس عَدَم؟ أو بالأخصّ: لماذا أُوجَدُ أنا؟ وما أهمِّيَّةُ الوُجود والموجودات؟ ماذا يحدُثُ إنْ توقَّفَ كلُّ شيءٍ عنِ الوُجود؟ وإنْ كان كلُّ شيءٍ مَوجودًا، وسيَأتي وَقتٌ لا يكونُ فيه موجودًا، فما الغرضُ إذًا من وُجودٍ مؤقَّتٍ يتحرَّكُ نحو النِّهاية؟ ألا يوجَدُ معنًى لأيِّ شيء؟ أم أنَّ هناك شيئًا آخرَ خارجَ هذا الوُجود يُعطي لكلِّ ما في الوُجودِ مَعنًى؟

إنَّ من شأن هذا السؤال أن يقودَنا إمَّا إلى اكتِمالِ المعنى والأبديَّة، وإمَّا إلى انعدام المعنى والعدميَّة.[٧]

نشعرُ عند هذه النقطة إمَّا بمزيدٍ من التَّقدير للوُجود، وإمَّا أنَّنا نحتَقرُ الوُجودَ لأنَّه يؤدِّي إلى العَدَم. بكلماتٍ أُخرى، يمكنُ أن يَقولَ أحَدُهم: إنْ كانت حياتي ستَنتَهي وهُناك وُجودٌ آخرُ بعدَها يُعطيها معنًى أكبر، فلْأَصنَعْ من حياتي معنًى يستَمرُّ إلى ما بَعدَها. ويمكنُ أن يقولَ شخصٌ آخر: إنْ كنَّا سنَموتُ في النِّهاية، فَلْنَمُتِ الآن أو لنأكُلْ ونَشربْ لأنَّنا غدًا نموت.[٨]

الله القريبُ البعيد

في لحظات السؤال هذه، عندما يتَحرَّرُ الإنسانُ لحظيًّا من العاديِّ والمألوف، ويبدأ في التَّساؤل عن الوجود- وهذا يحدُثُ عند المواقف الوُجوديَّة العنيفة مثل مواجَهة

7) Ted Peters, *God – The World's Future*.

٨) ١كورنثوس ١٥: ٣٢.

الموت- فإنَّ الله يجيبُ ويعلنُ عن ذاته ويقولُ إنَّه هو مَصدَرُ الوُجودِ وخالقُه من العدم. عندئذٍ يكونُ الإيمانُ هو أن يُلقِيَ الإنسانُ بنَفسِه ما بين ذراعَي الله. في أعماق وُجودِنا الشخصيّ، نحن لا نريدُ أن نكونَ بمفردنا، بل نشتاقُ إلى العلاقة الحميمة. ومهما كان الاقترابُ الإنسانيُّ الذي نتمتَّعُ به، فإنَّنا لانزالُ نَجِدُ داخلَنا احتياجًا دفينًا لا تُشبِعُه العلاقاتُ الإنسانيَّة، بل لا يُشبِعُه العالم بأَسْرِه- إنَّه الاحتياج إلى معرفة الله وإقامة علاقةٍ به. إنَّنا على الرَّغم من جوعنا وعطشنا المستمرِّ إلى الله، لا نَستَطيعُ أن نعيشَ في حالةٍ من المعرفة الكاملة لله الآن، فمَعرفتُنا إيَّاه تَظَلُّ ملفوفةً بالغموض والتوقُّع، وهذا ما يُتعِبُنا في العلاقة بالله، وهو ما يُشبِعُنا أيضًا. إنَّنا نحتاجُ إلى مَن يَقتربُ إلينا في حياتنا اليوميَّة، لكنَّنا أيضًا نُريدُ ما يخرجُ بِنا من قُيودِ الحياة اليوميَّة للإبحار في آفاق المطلَق. نحن مخلوقون ومحدودون، ولكنَّنا مَدعوُّون إلى التَّسامي فوق حالتنا المخلوقةِ الضَّعيفةِ المحدودة. إنَّنا نشتاقُ إلى حضورِ الله نفسِه.

ونحن، كما يُذكِّرنا ريتشارد رور[9] (Richard Rohr)، لا نستَحضرُ الله ببِرِّنا، ولا بعبادتنا وتسبيحنا، فنحن بالفِعْل في محضر الله دائمًا، لكنَّ ما يَنقصُنا أن نَعِيَ ذلك: أن نرفعَ عيونَ قلوبِنا إلى العلاء، فنرى عيونًا حانيةً تَنظرُ إلينا بحبٍّ شديدٍ ورغبةٍ عَميقةٍ في التَّواصُل.

معرفةُ الله تتطلَّبُ الاستعدادَ للخُروج

هناك نوعان من صفات الله: الصفات المثبَتة (أي ما هو)، والمنفيَّة (أي ما ليس هو). والصِّفاتُ المنفيَّة هي مايَصِفُ الله المطلقَ بالمقارَنة بمحدوديَّة الإنسان، والصِّفات المثبَتة هي مايُثبتُ كَمالَ الله. من الصِّفات المنفيَّة أنَّ الله لا يمكنُ أن يحيطَ به

9) Richard Rohr. *Everything Belongs: The Gift of Contemplative Prayer* (New York: Crossroad, 1999). P. 28.

الفَهم. لقد نَسَبَ العقلُ اليونانيُّ (تِبعًا للتَّقليد الأفلاطونيِّ[١٠] والأفلوطينيّ[١١]) إلى الله صفةَ الاستِعْصاء على الفهم والمعرفة، وقد أرجَعوا ذلك إلى وِحدةِ فِكْرِ الله في مقابل ثنائيَّةِ فكرِ الإنسان. بالنسبة إلينا، نحن نفكِّرُ في صورةِ المتَقابِلات والمتَضادَّات والأمور النسبيَّة، أمَّا الله فهو الحقيقةُ المطلَقة، لذا يجبُ أن يكونَ بسيطًا وليس معقَّدًا. من ثَمَّ، لا يمكنُنا أن نفكِّر في تلك الحقيقة المتسامِية البسيطة ونفهمَها بعُقولنا المنقسِمة. الله لا يمكنُ فَهْمُه، وإنْ كانَتْ هناك وسيلةٌ متاحةٌ لاختباره، فإنَّه يُختبَر في لحظات الخروج من الحياة اليوميَّة الروتينيَّة، ومن تصوُّراتنا عن الله، وانحصارنا المريض في أنفسنا وذلك في ومضات من الإشراق الرُّوحيّ.[١٢]

وحتَّى يبدأ الله تاريخَ إعلانِه عن نفسه للإنسان، بدأ برجلٍ اسمه "أبرام"، طلبَ منه أن "يخرجَ" من أرضه إلى أرض لا يعرفُها. عندما يخرجُ الإنسان من أرضه التي وُلد وتربَّى فيها، فإنَّ هذا يجعَلُه أيضًا يخرجُ من طرق التفكير والاستقبال التي اعتادَها، وهذا يؤهِّلُه لأنْ يختبرَ أمرًا جديدًا. في الواقع، عقلُ الإنسان مرتَبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالمكان. حتَّى نَومُه واستيقاظُه مرتبطٌ بدَورةِ الضَّوء والظَّلام وفقًا لتَوقيت المكان الذي يعيشُ فيه. لذلك حتَّى يكلِّم الله الإنسانَ، فإنَّه يطلبُ منه عادةً الخروج. والعجيبُ أنَّ هذا الخروجَ من الحالة المعتادة هو مَصدَرُ السعادة الحقيقيّ؛ فالكلمةُ الإنكليزيَّة (Ecstasy) التي تُشيرُ إلى النَّشوة والسعادة الفائقة تُترجَمُ حرفيًّا "الوجودُ خارجًا" (Ec-Stasis). وكثيرًا ما يحاولُ الإنسانُ عبر الخَمْرِ والمخدِّرات والجنس أن يخرج، ولو لِلَحظاتٍ، من إطار وَعْيِه لكي يحصُلَ

١٠) نسبةً إلى الفَيلسوف اليونانيِّ المشهور أفلاطون.

١١) نسبةً إلى الفيلسوف المصريِّ السكندريِّ "أفلوطين" (Plutinus)، وهو مؤسِّس ما يُسمَّى بالأفلاطونيَّة المحدَثة.

١٢) المرجع السابق نفسه.

على لحظاتٍ من النَّشوة. إنَّ الله يُريدُ لنا هذه النَّشوة بالخُروج من حياتِنا الروتينيَّة والاقتراب منه. ويحدُثُ هذا في أوقاتِ العِبادةِ والصَّمت والخلوة. لكنْ ينبغي، قبلَ كلِّ هذا، أن يكونَ الخروجُ من النَّفس تَوجُّها روحيًّا مستَمرًّا.

لأنَّه حياتُك

إنَّ العقَبةَ الكبرى في سبيل معرفة الله هي أن يحسبَ الإنسانُ نفسَه إلهًا وأنَّ الكَونَ يَدورُ حَولَه. بالتَّأكيد، نحن لا نقولُ بشكلٍ واعٍ إنَّنا آلهة، لكنَّنا نتصرَّفُ كما لو كُنَّا كذلك. إذا تأمَّلَ كلٌّ منَّا سلوكيَّاتِه وأفكارَه، فإنَّنا نكتشفُ بسهولةٍ أنَّ كلَّ واحِدٍ فينا يتصرَّفُ كما لو كان هو أهمَّ إنسانٍ في العالم، وأنَّه النُّقطةُ المحوريَّةُ التي يبدأ عندها كلُّ شيءٍ وينتَهي إليها الكلّ.

كلَّما كان لدينا استعدادٌ للخُروج من أنفسنا إلى الله، استَطَعْنا أن نعرفَ الله أكثر. وكلَّما عَرفْنا الله بصورةٍ حقيقيَّةٍ عميقة، تجرَّأنا على الخروج من أنفسنا أكثرَ، فنعرفَه على نحوٍ أكبر، ومن ثَمَّ نعيشُ متحرِّرين من أنفسنا بصورةٍ أكبر. فإذا كان حِمْلُ الخروج من أنفسنا ثقيلًا، فهو أخفُّ جدًّا من حِمْل الحياة ونحن منحَصِرون في أنفسنا.

إذا نَظَرْنا بتَدقيقٍ إلى الخليقةِ من حَولِنا، باحثين عن سمةٍ مشتَركةٍ بين كلِّ مجموعةٍ من الكائنات، فإنَّنا حَتْمًا سنَجِدُ الكثير. لكنْ إنْ بحَثْنا عن سمةٍ واحدةٍ عامَّةٍ تشمَلُ الجميع- الجماد والأحياء؛ الفَلَك والذرَّات؛ ما في الأرض وما في السموات- فإنَّنا لا نَجِدُ أروَعَ من هذه السِّمةِ المشترَكة بين الجميع، والتي يمكنُ أن نحسبَها بَصمةَ الخالق وتوقيعَه على كلِّ أعماله، ويمكنُ أن نسمِّيَها "**الجوهَر المركَز**". والمقصود بهذا التعبير هو وُجودُ كِيانٍ جوهريٍّ مركَزيٍّ تَدورُ حَوله كِياناتٌ أُخرى وتَتبَعُه، ويكونُ لكلٍّ من هذه الكِيانات كِيانُه الخاصُّ ووظيفتُه الخاصَّة. إلَّا

أنَّ أداءَ كلِّ كِيانٍ من هذه الكِيانات لوَظيفته، بل استمراريَّة وُجوده، يعتَمِدان كثيرًا على التَّبعيَّة المطلَقة للجَوهَر المركَز، بل أيضًا على الاحتفاظ بالبقاء في الموقع المحدَّد بدِقَّة سواءٌ في موقع بعيدٍ أم قريبٍ من المركَز. أي أنَّ طبيعةَ كلِّ شيء ومدى نجاحه في تحقيق غايَتِه تَرتبطُ بعَلاقتِه بالمركَز وذلك من أصغر الأشياء إلى أكبرها- من الذَّرَّةِ إلى المجرَّة، مرورًا بالخليَّة التي فيها تسيطرُ النُّواة في المركَز على كلِّ أجزاء الخليَّة وأنشطَتِها.

من أجمل الفِقراتِ التي تُعبِّر عن هذه الحقيقة ما وردَ في سفر التَّثنية ٣٠:

"انظُرْ. قد جَعلتُ اليومَ قُدَّامَك الحياةَ والخير، والموتَ والشَّرّ، بما أنِّي أوصيتُكَ اليومَ أن تُحبَّ الربَّ إلهك وتسلُكَ في طُرُقُه وتحفظَ وَصاياه وفَرائضَه وأحكامَه لكي تحيا وتنمُو... أُشهِدُ عليكُمُ اليومَ السَّماءَ والأرض. قد جعلتُ قُدَّامَكَ الحياةَ والموت، البركةَ واللَّعنة. فاختَرِ الحياةَ لكي تحيا أنت ونسلُك، إذْ تُحبُّ الربَّ إلهك وتسمَعُ لصَوتِه وتلتصقُ به، لأنَّه هو حياتُك".

معرفةُ الله تتطلَّبُ الاستعدادَ للخُضوع

إنْ كانَتْ أكبرُ عَقَبةٍ في سبيل معرفةِ الله هي أن يفكِّرَالإنسانُ ويتَصرَّف كما لو كانَ هو الله، فإنَّ أهمَّ خُطوةٍ تجعَلُ الإنسانَ يتذكَّرُ أنَّه ليس الله، هي أن يعيشَ حياةً من الخضوع والعبادة. فحالةُ الخضوع والعبادة لله تذكِّرُنا أنَّنا مخلوقون وأنَّه الخالق، وهذا ليس لمصلَحةِ الله بل لمصلحتنا نحن. فعندما يتصرَّفُ الإنسانُ ضدَّ طبيعتِه بصفته مخلوقًا يعتمدُ وُجودُه كلُّه على الله، سيُصابُ بالضَّرَر.

لكي يُذكِّرَ الله الإنسانَ (آدمَ وحوَّاء) بمحدوديَّته، وَضَعَ شجرةً في الجنَّة ومنعَه

من أن يأكلَ من ثمرها، وذلك ليَتَذكَّرَ أنَّه مخلوقٌ ومحدود، وأنَّه ليس مركَزًا للكَون. كانَتِ الطَّاعةُ والخضوعُ لله هما صِمامُ الأمان الذي يحمي الإنسانَ من أن يتصوَّرَ أنَّه إلهُ هذا الكَون. لقد خَلقَ الله الكَونَ وأعطى الإنسانَ أن يمارسَ سُلطانَه على الأرض والطُّيورُ والحيوانات والأسماك، وتخضَعُ له كلُّ وحوش البرِّيَّة. يَصِفُ سي. أس. لِويس[١٣] هذا الإنسانَ الفردوسيَّ (آدم قبل السقوط) بأنَّه- على عكس ما نعرفه عن الإنسان الآن- يتميَّزُ بسُلطانٍ كاملٍ على الخليقة والحيوانات، بل هو يحتَفِظُ أيضًا بسلطانٍ كاملٍ على جسده.

كان يحتاجُ هذا الإنسانُ الأوَّلُ بكلِّ قدراته الروحيَّة والجسديَّة، إلى ما يُذكِّره بأنَّه ليس كلِّيَّ القُدرةِ والسلطان. لذا أمرَه الله ألَّا يأكُلَ من ثمر شجرةِ مَعرفةِ الخَير والشَّرّ. ليس لأنَّ الله لا يُريدُ للإنسان أن يعرفَ الخيرَ والشَّرّ، بل لأنَّه يُريدُه أن يعرفَهما من خلال الله، حتَّى يحتَفظَ بعلاقةِ الخضوع والطَّاعة والاعتماد على الله. والقوَّةُ التي كانت لدى الإنسان ليسَتْ فقط ممنوحةً من الله، بل هي أيضًا مُستَمدَّةٌ من علاقةِ الطَّاعةِ والخضوع لله. عندما عصى آدمُ وحوَّاءُ الله، فَقَدا علاقتَهما الواعِية به، والتي هي مبنيَّةٌ على الطَّاعة والخضوع، لكنَّ علاقتَهما الكِيانيَّة به ظلَّتْ مَوجودةً. فكلُّ كائنٍ يستَمدُّ كَينونتَه من الله، هو إذًا على علاقةٍ كينونيَّة (وجوديَّة) بالله.

إنَّ العلاقةَ الشخصيَّةَ الواعِية المبنيَّة على الطاعةِ والخُضوع هي الأساسُ في النموِّ الروحيِّ، والاستقرار النفسيِّ والأخلاقيِّ للإنسان. لم يَمُتِ الإنسانُ جسديًّا عندما عصى الله، لكنَّه مات أخلاقيًّا وروحيًّا، وكان مَظهَرُ ذلك الموت أنَّ الخوفَ (خشيت) والخِزي (عريان) دَخَلا حياتَه[١٤] بعد أن كانَتْ حياتُه سيمفونيَّة

13) C. S. Lewis, *The Problem of Pain*, (N. Y. : Harper Collins, 1940- 1996 – 2001) p. 57.

١٤) تكوين ٣: ١٠.

متَّصِلةً من الفرح والإشباع. ومنذ ذلك الحين ظلَّ الخوفُ والخِزْيُ في حياة الإنسان مصدرَين للقَلَق الرُّوحيِّ الذي يُعيقُ نموَّه ويُصيبُه بكلِّ أنواع الأمراض الروحيَّة والنفسيَّة.

الخروجُ والخضوع: مَصْدَرا الشِّفاء والنُّموّ

إذا كان الخروجُ والخضوعُ ضَروريَّان لمعرفة الله، فَهُما أيضًا ضَروريَّان للشِّفاء والنُّموِّ الإنسانيِّ عمومًا. في الفِقرة المقتبَسة من سفر التَّثنية، يقولُ الوَحيُ إنَّ الالتصاقَ بالربِّ وعبادتَه والخضوعَ له ليس فقط مَصدرَ الحياة، بل هو أيضًا مَصدرُ النُّموّ. إنَّ النُّموَّ في معرفة الله واستقبال محبَّته غير المشروطة هو الذي يَشفينا من الخوفِ والخزيِ اللَّذين يُعيقان نُموَّنا الرُّوحيَّ والنفسيَّ والاجتماعيّ، وهذه الإعاقة في النُّموِّ هي التي تجعَلُنا مُعرَّضين لكلِّ أنواع الاضطرابات التي لن نُشفى منها إلَّا إذا واصَلْنا النُّموَّ الرُّوحيَّ عبر الاتِّصالِ بالله وأنفسنا والآخرين.

ولعلَّ مَرضَ السَّرطانِ هو أحَد الأمثلة التي تُشيرُ موضِحةً إلى حجم الضَّررِ الذي يَقعُ على الإنسان من جرَّاءِ التمرُّد. فهذا المرضُ الخبيثُ ما هو إلَّا استِقلالُ خَليَّةٍ وتمرُّدِها على وَضْع التبعيَّة.

إنَّها مجرَّدُ خليَّةٍ ترفضُ الخضوعَ للقواعد الموضوعة لها بشأنِ سُرعةِ انقسامها وحدودِ مَكانِها! لقد قرَّرتْ تلك الخليَّة في لحظةِ جنون، لم يُعرَفْ سببُه بعدُ، أن تُغيِّرَ مكانَها وسرعةَ انقسامها. إنَّها تريدُ حرِّيَّتَها لتُحقِّقَ ذاتَها بعيدًا عن القواعدِ التي تحكُمُ باقي النَّسيج. إنَّ تلك الخليَّة تبتَغي أن تكونَ المركَز! وفعلًا تصيرُ هي المركَز! لكنْ للأسف الشَّديد، تصيرُ مركَزًا لوَرمٍ خَبيثٍ يتحتَّمُ استِئْصالُه وإلَّا سيُدمِّرُ الجسدَ كلَّه. وقد أجرى الله ذلك الاستئصالَ على الصَّليب عندما قرَّرَ أن

يُبطِلَ الخطيَّةَ بذَبيحةِ نفسه، فيوقِفَ نشاطَ هذا السَّرطان، ويستَأصِلَ بختانِه الإنسانَ العتيقَ الذي يدمِّرُ ذاتَه، ويخلقُ إنسانًا جديدًا يتمركزُ حول الله، ويتجدَّدُ إلى المعرفة حسب صورة خالقه في مزيد من الطاعة والإثمار، ثُمَّ بمجيئه الثاني ومُلكِه سيَجمَعُ الله كلَّ ما كان قد استقلَّ، ويُعيدُه ليَتمركَزَ حولَ السيِّد المسيح، ما في السموات وما على الأرض، ليَعودَ هو المركَزَ لكلِّ مَنظومةِ الوُجود.

إنَّ السرطانَ هو مَثَلٌ على الأمراض الجسديَّة، يُقابِلُه من الناحيَّة النفسيَّة السلوكيَّة- وباءٌ آخرُ هو الإدمان. ولعلَّ سرَّ نجاح "برنامَج الخطوات الاثنتَي عشرة للمدمنين المجهولين" في شفاء أهمِّ مرضٍ روحيٍّ يُصيبُ الإنسانَ- وهو الإدمان بكلِّ أنواعه-هو أنَّ البرنامَجَ وَضَعَ يَدَه على السَّببِ الرُّوحيِّ الحقيقيِّ من وراء هذا الوباء: أنَّ الإنسانَ يَدورُ حَولَ نفسه، ويَحسبُ نفسَه إلهًا لنَفسِه من خلال محاوَلاتِه المستمرَّة للسَّيطرةِ على حالتِه المزاجيَّةِ عبر الموادِّ التي يتَناوَلُها، أو الأنشطةِ التي يمارسُها، أو حتَّى العلاقاتِ التي يُقيمها. والسببُ الرُّوحيُّ العميقُ من وراء كلِّ ذلك هو أنَّ الإنسانَ يبحثُ عن حلٍّ لخَوفِه وخِزْيِه وجوعه الروحيّ. وبَدَلَ أن يلجأَ بخَوفِه وخِزْيِه إلى الله، فإنَّه يلتجئُ إلى أمورٍ أُخرى لا تَزيدُه إلَّا جوعًا وخِزْيًا، وهكذا يدخُلُ دائرة الإدمان المفرَغة.[15] فالله خلقَ كلَّ شيءٍ ليكونَ تعبيرًا عن الحبّ؛ لأنَّه يُريدُ أن يُعطي، بينما يمكنُ أن يستخدمَ الإنسانُ كلَّ ما هو مخلوقٌ ليكونَ مَوضوعًا للإدمان؛ لأنَّه يُريدُ أن يُسيطِر. تقولُ الخطوةُ الأولى من خطواتِ "برنامج المدمنين المجهولين": "اعترفنا أنَّنا عاجِزون أمام الكحول [أو أيِّ شيء آخر]، وحياتُنا صارَتْ غيرَ قابلةٍ للإدارة". والخطوةُ الثانية تعترفُ بِوُجودِ قوَّةٍ عُظمى في الكون،

15) Gerald G. May. *Addiction and Grace*, (N. Y. : Harper One, 1991).

والثالثة تُقرِّر التَّسليم والخضوع لهذه القوى العُظمى لتَحقيقِ الشِّفاء والصَّواب.

ومن الشِّعاراتِ المشهورة للبرنامج:

- استسلم لله (Let Go and Let God!).
- يوجَدُ إله... وهو ليس أنت (There is God and it is Not You!).

على عكسِ مَفهومِنا السَّائد عن النُّموِّ أنَّه يحدُثُ من خلال السَّيطرةِ والحصولِ على الأشياء، فإنَّ النُّموَّ الرُّوحيَّ الحقيقيَّ يحدُثُ من خلال الخضوع والتَّسليم والطاعة. وكلَّما سلَّمنا لله، حَدَثَ النُّموُّ الرُّوحيُّ الذي يؤدِّي إلى تَناقُصِ الخَوفِ والخِزي، ممَّا يُبطِئ بالتَّدريج من عَجَلةِ الإدمان المسرِعة إلى أن تتوقَّف.[١٦] عندما نقرِّرُ أنَّ انحصارَنا في أنفسنا لا يَحمينا بل يُميتُنا؛ وحينما نقرِّرُ أن نخرجَ من أنفُسِنا إلى الله ونجعَلَه هو مركَزَ حياتِنا بدلًا من أنفسنا، فإنَّ أهمَّ ما يُطمْئِنُنا هو أنَّ هذا الإله يحبُّنا أكثر ممَّا نحبُّ نحنُ أنفسَنا. إنَّه يحبُّنا كما نحن، ويعرفُ عنَّا كلَّ شيء، ويَقبَلُنا على الرُّغم من كلِّ شيء.

١٦) المرجع السابق نفسه.